

معجم البلدان

صفا العيش في بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير خفض ولا غص تطول بها الأعمار إن غذاءها مريء وبعض الأرض أمراً من بعض قضى ربها أن لا يموت خليفة بها إنه ما شاء في خلقه يقضي تنام بها عين الغريب ولا ترى غريباً بأرض الشام يطمع في الغمض فإن جزيت بغداد منهم بقرضها فما أسلفت إلا الجميل من القرض وأن رميت بالهجر منهم وبالقلى فما أصبحت أهلاً لهجر ولا بغص وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج والمهدي ابنه خرج إلى نواحي الجبل قمت بماسبذان بموضع يقال له الرد والهادي ابنه مات بعيساباد قرية أو محلة بالجانب الشرقي من بغداد والرشيد مات بطوس والأمين أخذ في شبارته وقتل بالجانب الشرقي والمأمون مات بالبزندون من نواحي المصيصة بالشام والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامراء ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقي بغداد كما ذكرناه في التاج وتعطلت مدينة المنصور منهم .

وفي مدح بغداد قال بعض الفضلاء بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الطرائف واللطائف وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع وكان أبو إسحاق الزجاج يقول بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية وكان أبو الفرج البغيا يقول هي مدينة السلام بل مدينة الإسلام فإن الدولة النبوية والخلافة الإسلامية بها عششتا وفرختا وضربتا بعروقتها وبسقتا بفروعهما وإن هواءها أغذى من كل هواء وماءها أعذب من كل ماء وإن نسيمها أرق من كل نسيم وهي من الأقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة ولم تزل بغداد موطن الأكاسرة في سالف الأزمان ومنزل الخلفاء في دولة الإسلام وكان ابن العميد إذا طراً عليه أحد من منتحلي العلوم والآداب وأراد امتحان عقله سألته عن بغداد فإن فطن بخواصها وتنبه على محاسنها وأثنى عليها جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله ثم سألته عن الجاحظ فإن وجد أثراً لمطالعة كتبه والاقتباس من نوره والاعتراف من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غرة شاذخة في أهل العلم والآداب وإن وجده ذاماً لبغداد غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن ولما رجع صاحب عن بغداد سألته ابن العميد عنها فقال بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل وقال ابن زريق الكاتب الكوفي سافرت أبغي لبغداد وساكنها مثلاً قد اخترت شيئاً دونه الياس هيهات بغداد والدنيا بأجمعها عندي وسكان بغداد هم الناس وقال آخر بغداد يا دار الملوك ومجتنى صنوف المنى يا مستقر المنابر

